النفحة الخامسة: رَمَضَانُ وفضل الإصلاح بين الأنام

من أهم أهداف الإسلام العظام وغاياته الكبار، أنه دين يؤلف بين القلوب، ويأمر بالتعاون والتناصر، وينهى عن التنافر والخلاف، ويدعو أتباعه إلى النهوض بواجب إصلاح ذات البين، ويعتبر الإصلاح بين الناس من أجلّ الطاعات، وأفضل العبادات، بل جعل الإسلامُ درجة المصلح بين الناس أعلى من درجة الصائم القائم، لما له من أثر في توحيد الصفوف، وجمع القلوب، والشد من أزر المجتمع وتماسكه.

حري بنا أيها الصائمون الأكارم ونحن نعيش هذه الأيام الفضيلة، أن نغتنم ثواب إصلاح ذات البين، وأن نسعى لنزع الشحناء من قلوب الناس، وإزالة ما رسى على النفوس من بغضاء، وأن نزيل أسباب الهجر والقطيعة بين المسلمين، فالشيطان يسعى جاهداً لإيقاع الخلافات، وإشعال فتيل العداوات، والنفس الأمارة بالسوء تعمل عملها من سوء ظن، واتباع للّهوى، مما يزيد الخصومة، ويورث الفتن.

ولأهمية إصلاح ذات البين، وما يرتد على الفرد والمجتمع من فوائد ومنافع، فإننا نجد في تاريخ البشرية قد برزت أسماء رجال عظام، لم ولن تُنسى، وما ذاك إلّا أنهم اشتهروا بهذا العمل النبيل... وفي قائمة المصلحين الذين عرفهم التاريخ (الأنبياء والرسل) وكتاب الله تعالى الوثيقة التاريخية الوحيدة الصحيحة، قصَّ علينا طرفاً من إصلاحهم، عليهم السلام.

فهذا نبي الله موسى عليه السلام، لما انطلق إلى ميقات ربه تبارك وتعالى، وخلف أخاه هارون وراءه، أوصاه بوصية الإصلاح، وحذَّره من سلوك سبيل المفسدين، قال الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ

لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ [الأعراف: 142].

وهذا شعيب عليه السلام لما جاء برسالة ربه، وبلغ قومه، كان من أبرز الأمور التي أعلن أنه بعث من أجلها: الإصلاح، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ [هود: 88].

ولاحظوا كيف قدم الإرادة الصادقة ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ على الإصلاح، لأن الإصلاح أساسه صدق النية، وإخلاص القلب.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي ما أريد إلّا فعل الصلاح، أي أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة، وقال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ لأن الاستطاعة من شروط الفعل... أي إن أريد إلّا الإصلاح جهدي واستطاعتي)[1].

وهكذا فإن جميع الأنبياء كان هذا منهجهم، وهذه دعوتهم، إصلاح القلوب وتوجيهها إلى الله تعالى، وإصلاح النفوس عن كل زغل وشرك ونقيصة، وإصلاح السلوك وضبطه بتعاليم الشرع وأوامر السماء، وإصلاح المجتمع من كل ما من شأنه أن يفسده ويلوثه.

أيها الأحباب:

لقد خلق الحق تبارك وتعالى الناس مختلفين في أشكالهم وألوانهم وألسنتهم وطبائعهم وعاداتهم وثقافاتهم، الأفكار متباينة، والأهواء متصارعة، كل ذلك كان مدعاة للاختلاف والتنازع، لكنه سبحانه أمر بالإصلاح لرأب الصدع، وسد أبواب الفتن، ولينعم الناس بحياة كريمة يسودها الأمن والأمان والطمأنينة والسلام والوفاق، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 9/ 84.

أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء: 114].

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾: (عام في الدماء والأموال والأعراض، وفي كل شيء يقع التداعي والاختلاف فيه بين المسلمين، وفي كل كلام يراد به وجه الله تعالى، فأما من طلب الرياء والترؤس فلا ينال الثواب، وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعريّ ﷺ: ردّ الخصوم حتى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يورِث بينهم الضغائن)[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل (يصلح) بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»[2].

ونجد أن الإصلاح يمتد في شتى مرافق الحياة، وفي جميع الأصعدة، فالزوجان قد يقع الخلاف بينهما لسبب أو لآخر، ولكن قبل أن يقع الشقاق المفضي إلى هدم كيان الأسرة، ومن ثم تشريد الأطفال وضياعهم، أمر الحق ﷻ أهل الرأي والعدل والصلاح بالتدخل للإصلاح بينهما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء: 35].

المصلحون من طرف الزوج وطرف الزوجة، ولضمان الإصلاح يجتمعان في هدوء، وبعيد عن الانفعالات النفسية، والملابسات المعيشية، مع البراءة التامة في الرغبة من غلبة أحدهما على الآخر، ومع الحفاظ على سمعة الأسرتين الكريمتين، وصيانة بل ودفن ما اطلاعا عليه من عيوب ومشاكل، عندها بهذه النية يحقق ربنا ﷻ الإصلاح والوفاق.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 5/ 382.

(2) رواه البخاري، 3/ 1090، رقم: (2827).

وفي سياق المحافظة على الأسرة من التصدّع والتفكك، ولصيانتها من عوامل الهدم أو الفتور، والتي تتمثّل في جفوة الزوج وإعراضه عن الزوجة، وهذا ما يهدد أمن المرأة وكرامتها، فإذا خشيت المرأة أن تصبح كالمعلقة، لا هي زوجة ولا هي مطلقة، فليس عليها جناح أن تبادر هي بالصلح بترك بعض حقها ـ بكامل حريتها واختيارها ـ لتسل سخيمة الزوج وجفوته، أو يبادر الأقارب والمصلحون بالصلح بتذكير الزوج ووعظه وإصلاحه، عندها تنسم على القلوب نسمة الندى والإيناس، وتنقلب الجفوة إلى ود وصفاء، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النّساء: 128].

وقد يقع الخلاف بل النزاع الشديد بين طوائف مؤمنة، وطائفتان مؤمنتان أشعلت شياطين الإنس والجن بينهما نار العداوة والاقتتال، بأساليب الدس والنميمة والتهييج وغيرها، عندها يجب على المتقين المصلحين أن يدخلوا ويواجهوا الموقف بحزم وعقل وشجاعة، ولا يدعون الأمور للرعاديد من الناس الذين يفسدون ولا يصلحون، ولا يدعون حل نزاعاتهم لأعداء الأمة الذين يتحكمون بمصائر الناس وعواقب أمورهم، بل من الواجب المسارعة في تأليف القلوب، ودعوتهما إلى النزول على شرع الله وحكمه، فإن اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى وتجاوزت الحد، فقاتلوها لأنها معتدية باغية، لا للقتال، إنما لتعود إلى رشدها وصوابها، ولتحقق الأخوة المنشودة بعد الإصلاح المنشود.

أيها المسلمون:

إن أبواب الجنة تفتح كل اثنين وخميس لعباد الله الصالحين، إلّا من وقع بينه وبين أخيه المسلم جفوة أو خصومة، فإنهم لا نصيب لهم من هذا الفضل، قال رسول الله ﷺ: «**تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله ﷻ في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلاّ امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال:**

انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا»[1].

أخي المصلح:

إن النبي ﷺ بشَّرك بدرجة في الجنة تفوق درجة الصائم القائم القابع في بيته ولا يصلح بين الناس، لأن صلاته وعبادته تعود بالنفع عليه ولا تتعدى غيره، أما المصلح فإن خيره يعم على الجميع، واعتبر النبي ﷺ إصلاحك بين الناس عبادة و طاعة وقربة إلى الكبير المتعال، قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**» قالوا: بلى، قال: «**إصلاح ذات البين، فان فساد ذات البين هي الحالقة**»[2].

والنبي ﷺ كان يسعى دائماً في إصلاح ذات البين، ولمّ الشمل، ولا يدع فرصة للشياطين كي تثير العداوة والنزاع بين الصحب الكريم، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ بلغه أن أناساً من بني عمرو بن عوف، كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأت النبي ﷺ، فجاء بلال، فأذن بلال بالصلاة، ولم يأت النبي ﷺ، فجاء إلى أبي بكر، فقال: إن النبي ﷺ حبس، وقد حضرت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ فقال: نعم، إن شئت، فأقام الصلاة، فتقدم أبو بكر، ثم جاء النبي ﷺ يمشي في الصفوف، حتى قام في الصف الأول، فأخذ الناس بالتصفيح (أي التصفيق) حتى أكثروا، وكان أبو بكر لا يكاد يلتفت في الصلاة، فالتفت فإذا هو بالنبي ﷺ وراءه.

فأشار له بيده، فأمره أن يصلي كما هو، فرفع أبو بكر يده فحمد الله، ثم رجع القهقرى وراءه حتى دخل في الصف، وتقدم النبي ﷺ فصلى بالناس، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «**يا أيها الناس، ما لكم إذا نابكم شيء في صلاتكم**

(1) رواه مسلم، 4/ 1987، رقم: (2565).

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، 11/ 489، رقم: (5092)، والترمذي، 4/ 663، رقم: (2509)، وقال: هذا حديث صحيح.

أخذتم بالتصفيح، إنما التصفيح للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل سبحان الله، فإنه لا يسمعه أحد إلّا التفت، يا أبا بكر، ما منعك حين أشرت إليك لم تصل بالناس»، فقال: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي النبي ﷺ[1].

بل إن الله تبارك يصلح يوم القيامة بين المتخاصمين حتى يدخلهم الجنة، عن أنس رضي الله عنه قال: (بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك، حتى بدت ثناياه.

فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟ بأبي أنت وأمي.

قال: «رجلان من أمتي، جثيا بين يدي رب العزة.

فقال أحدهما: يا رب، خذ لي مظلمتي من أخي.

فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك، ولم يبق من حسناته شيء؟

قال: يا رب، فليحمل من أوزاري».

قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء.

ثم قال: «إن ذاك اليوم عظيم، يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم.

فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك، فانظر في الجنان.

فرفع رأسه، فقال: يا رب، أرى مدائن من ذهب، وقصوراً من ذهب، مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ أو لأي صديق هذا؟ أو لأي شهيد هذا؟

قال: هذا لمن أعطى الثمن.

قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟

قال: أنت تملكه.

قال: بماذا؟

قال: بعفوك عن أخيك.

قال: يا رب، فإني قد عفوت عنه.

(1) رواه البخاري، 2/ 975، رقم: (2544).

قال الله ﷻ: فخذ بيد أخيك، فأدخله الجنة».

فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: **«اتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين»**[1].

أيها المسلمون:

وفي المقابل فإن أدعياء الإصلاح كُثُر، يفسدون في الأرض ويزعمون بل ويدعون أنهم يصلحون، ويقتلون الشعوب، ويبيدون الأمم، ويستنزفون الخيرات، ويسلبوا مقدرات البشر، ويتبجحون بعد ذلك دون خلق أو حياء، ويدعون أنهم مصلحون أو مخلصون أو منقذون، قال تعالى في وصف أمثال هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البَقَرَة: 11].

إنَّهم يقولون هذا الكلام لأن الموازين اضطربت، سواء في نفوسهم وداخلهم أو في واقع الناس، إنَّهم مهرة في صناعة الكلام ورصفه وتنميقه، مهرة في المنتديات والمحافل في الخديعة والكذب والحيل، لكنهم بنصّ القرآن (هم الفاسقون) فسقهم أقصاهم عن الحق والإصلاح والإيمان.

هؤلاء لهم شبهٌ مثلٌ في الماضي والحاضر، فهذا نبي الله صالح عليه السلام، يزجر قومه لتبجحهم بالإصلاح وهم مفسدون، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: 150 ـ 152]، فماذا كانت النتيجة؟: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: 158].

ثم اعلم أخي المسلم أن الإسلام حرَّم الكذب، وتوعد الكاذب بسوء العذاب، لأن الكذب خلق ذميم يدل على فساد الطبع في الإنسان، وسوء خلقه، إلّا في عدة حالات منها إصلاح ذات البين، قال ﷺ: **«ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً أو يقول خيراً»**[2].

---

(1) الحاكم في المستدرك، 4/ 620، رقم: (8718)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(2) رواه البخاري، 2/ 958، رقم: (2546).

كما أنه لابدّ للمصلح من أن تتوفَّر فيه مجموعة خصال تمكنه من أداء مهمته منها:

1. أن يسعى بالإصلاح ابتغاء وجه الله تعالى ومرضاته، لا للسمعة والرياء، ولا ليشير الناس إليه بالبنان.
2. أن يدور مع الحق حيث دار، لا تشده عصبية، ولا ترضخه قبلية.
3. حيازته على خبرة حياتية عملية، ورجاحة عقل في دراسة المنازعات، والموازنة في أيسر الأساليب المؤدية للإصلاح.

يا مسلمـون:

لقد تفشَّى الصراع بين الناس، وكثر النزاع، وعمَّ الشر واستفحل، وضرب الشيطان أسورة النفوس فأفسدها، ورحابة الصدور فضيقها، حتى أصبحنا نرى الخصومات تنشب بين أفراد الأسرة الواحدة، وبين القبيلة، وبين الجيران والخلان، وبين الأصحاب والأحباب، والأنكى من ذلك أن شرار الخلق الذين يسعون بالنميمة وإشعال الفتن كثروا، ودعاة الإصلاح وتأليف القلوب ندروا!!

أين أنتم يا دعاة الإصلاح؟ أين الذين ينادون بالمودة والوفاق؟ أين من يخلص قلبه لله تعالى؟ ويجرد نفسه عن الهوى؟ ويجمع القلوب بعدما تنافرت؟ ويؤلف النفوس بعدما تغشَّتها آفات الحقد والضغائن؟

نعم قد يتعرض المصلح إلى الأذى والشتيمة، بل لربما لا تخلو خطواته المباركة من عثرات ومشاق، وقد يعترض طريق إصلاحه بعض السفهاء ببعض أساليبهم الرخيصة، لكن على قدر المشقة يكون الثواب، وكم تعرض دعاة الإصلاح عبر التاريخ للأذى، بل كم وكم تعرض الأنبياء جميعاً للأذى وهم يصلحون أحوال الأمم والأقوام.

إن الخلافات اليوم لم تعد محصورة على الأسر والأفراد، ولم تعد مقصورة في المنازل والبيوتات، بل بسط النزاع سلطانه على الأمة كلها فشتتها ومزقها شرّ ممزق، حتى أضحت أوهن من خيط العنكبوت، لكن لماذا هذه الخصومات؟

ولماذا لا تنحسم المنازعات؟

أليست عقيدتنا واحدة، فالجميع يقر بالشهادتين؟

أليست عبادتنا واحدة على صف واحد نلتقي كل يوم، وعلى صعيد مشترك من العبودية للّه تعالى نجتمع؟

أليست مناهل أخلاقنا ومنابعها واحدة؟

أليس تاريخنا المشرق الذي صاغ أعظم حضارة وأكرم إنسانية واحداً؟

لماذا الخلاف قد استشرى في بلداننا، فتقطعت إلى دويلات ومقاطعات؟

يا مسلمون:

إن الأرواح التي زهقت بين الشعوب الغربية، في الحربين العالميتين تقدر بالملايين، وسالت الدماء أنهاراً.

لكنهم الآن اجتمعوا واصطلحوا، وتنادى عقلائهم بتوحيد أوربا عسكرياً واقتصادياً وفي كل المجالات.

ونحن المسلمين، في البلاد العربية وغيرها، لم تقم بيننا حروب عالمية، ولا مطاحنات، لكن القومية قد تأصلت في نفوس أبناء كل بلد، ورسمت الحدود في عقولنا وقلوبنا كأنها قطعة منا لا زوال لها!

حتى متى هذا النزاع؟ ومتى يكون الصلح والوحدة، لننعم بالكرامة والحرية والمجد.

اللّهم اجمع قلوبنا عليك، ولا تجعل حوائجنا إلّا إليك، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، وأخرجنا من ظلمة الشقاق والخلاف، إلى نور الوحدة والاصطلاح، يا أرحم الراحمين.